مفهوم الجبر في آية ٩٣ النحل و الآية ٤٩ يونس في تفسير الفريقين

طالبة الدكتوراه نجلاء صلاح جاسم الجبوري
قسم علوم القرآن والحديث ـ جامعة مازندران ـ بابلسر ـ إيران
Najlaa.n2gcn2gc@gmail.com
حبيب الله حليمي جولدار (الكاتب المسؤول)
أستاذ مشارك ـ قسم علوم القرآن والحديث ـ جامعة مازندران ـ بابلسر ـ إيران
jloudar@umz.ac.ir

The concept of algebra in verse 93 of An-Nahl and verse 49 of Yunus in the interpretation of the two teams

Study Ph.D. Student Najlaa al-Jaboory
Department of Quran and Hadith Studies - The University of Mazandaran - Babolsar -Iran
Habibullah Halimi Goldar (responsible writer)
Assistant Professor، Department of Quran and Hadith Studies - The University of Mazandaran - Babolsar -Iran

الملخص:-

يزعم بعض أهل السنة والجماعة أن أفعال الناس لم تصدر عنهم باختيارهم وإرادتهم بل هي جميعاً بإرادة الله تعالى التي لا تتخلف عنها، وأصبحوا مجبرين عليه في حركاتهم وسكونهم كجثة في أيدي الغسال، ومن هنا قلنا إنّ في ذلك القضاء الحاسم على عدالته سبحانه وتعالى، هذا من ناحية.

والبعض الاخر يزعم أنّ أفعال العباد من قبيل الثاني، وأنّهم يكونون مستقلون في تصرفاتهم وحركاتهم وسكناتهم، وإنّما يفتقرون إلى إفاضة الحياة والقدرة من خالق الخلق الله تعالى حدوثاً فحسب، ولا يفتقرون إلى علّة جديدة بقاءً، بل العلّة الاساسية والأُولى كافية في بقاء القدرة والاختيار لهم إلى نهاية الطريق.

وأما الإمامية فإنها تعتقد أنّ أفعال العباد من قبيل النظريّة الوسطى هي تلك النظريّة ـ الأمر بين الأمرين ـ

الكلمات المفتاحية: الجبر، الاختيار، الأمر بين الأمرين، أهل السنة والجماعة، الإمامية".

Abstract:-

Some Ahl al-Sunnah wal-Jamaa'ah claim that the actions of the servants are of the first type, as they did not originate from them by choice or will, rather they are all by the will of God Almighty, which does not lag behind. That is the decisive judgment on His justice, Glory be to Him, on this one hand

Others claim that the actions of the servants are like the second, and that they are independent in their movements and dwellings, but they only lack the continuity of life and power from God Almighty, and they do not lack a new cause for survival, but the first cause is sufficient in the survival of ability and choice for them to the end.

The Imamiyyah claims that the actions of the servants are like the middle theory is that theory - the matter between the two things.

key words: algebra, choice, the matter between the two, Ahlus-Sunnah wal-Jama'ah, the Imamiyya.

المقدمة:ـ

"لقد تمكن تطور المجتمعات البشرية عبر العصور التاريخية التأثر بالحضارات والثقافات المختلفة، وكان بالضرورة ان تتضمن هذه نتاجات تلك الحضارات والثقافات محتوى الفكر الانساني من تربية وعادات وعلوم وفنون وعقائد وفلسفات... وغيرها من مكونات الفكر والثقافة، كما ان نظرة معمقة الى خارطة الفكر الانساني، نجد الفكر الإسلامي العربي على مستوى واسع من الخصوبة والنتاج بفعل نشاطات المدارس الثقافية والفكرية في جوانب مختلفة".

"وفي غمار تلك الأمور كان للفكر التربوي العربي الإسلامي أثر متميزٌ، كانت نواتها المدارس والتيارات والأفكار والحركات والشخصيات وكان لكل منها أفكارها ومناهجها الخاصة في البحث والتقصي عن الحقيقة، وأثر كل جهة في الآخر وتأثره به".

"إنّ طبيعة الحكومات المستبدة هي تبرير كلّ ما يعم المجتمع من الفقر والظلم والتعسف بعامل خارج عن دائرة حكمهم كقضاء اللّه سبحانه وقدره حتّى لا يعترض عليهم معترض، ومن هنا جاء التفسيرُ الخاطئ للدين طريقَه إلى المجتمع الحاضر وانّه وسيلة من وسائل دعم الجهاز الحاكم وعلى الرغم مما كتب عن هذا الأمر في التراث العربي الإسلامي، إلاّ أنه لم يتطرق الباحثون إليه إلا قليلا في مجال الاسس التربوية بالبحث والتنقيب في اعماق نتاجات المدارس والجماعات وآرائهم وأقوالهم في الجبر والتفويض ومن تلك المدارس الفكرية".

المبحث الأول

عرض تاريخي لمفهوم ونشأة النظرية عند المسلمين

"الجبر لغة: هو الإكراه، فأجبره على الحكم أكرهه"[١].

"اما الجبر في الإصطلاح إجبارُ الله عز وجل عبادَه على ما يفعلون، خيراً كان أو شراً، حسناً كان أو قبيحاً، دون أن يكون للعبد إرادة واختيارُ الرفض والامتناع"[٢].

"إنّ التأمّل في ما جاء في عقائد العرب في الجاهلية يدل بأنّهم أو طائفة منهم كانوا معتقدين بالتقدير السالب للاختيار عن الإنسان"، يقول سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ

اللّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾[٣].

"وليست هذه الآية، هي آية وحيدة تكشف عن مسالة عقيدة العرب في العصر الجاهلي حول افعال الإنسان، بل هناك عدة آيات تشير إلى عقيدتهم"، يقول سبحانه: ﴿وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾[٤].

فقولهم: ﴿وَاللّهُ أَمَرَنا بِها﴾ إشارة إلى" أنّ عبادة الوثن أمر قدّره اللّه سبحانه وليس لنا الفرار ممّا قُضي به، واللّه سبحانه يردّ على زعمهم" بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فلا "يأمر بها ولا يقدّرها بالمعنى الذي تدّعون أي السالب للاختيار"[٥].

"وأمّا جذور واسس هذه العقيدة وانّها كيف جاءت إلى الجزيرة العربية حتّى سادت على المشركين فقد ظلّت غير معروفة ومجهولة"

"والعجيب في ذلك انّ ترسبات فكرة الجبر بقيت متجذرة بعد بزوغ نجم الإسلام وسادت في حياة الرسول وكذلك وبعد رحيله أيضاً".

"روى الواقدي في كتاب المغازي عن أُمّ الحارث الأنصارية وهي تخبر عن فرار المسلمين يوم حنين اذ قالت: ((مرّ بي عمر ابن الخطاب منهزماً، فقلت: ما هذا؟ فقال عمر: أمر اللّه))[٦].

"و معنى ذلك انّه لم يكن دور للغزاة من المسلمين في هزيمة حنين، وقد كانت الهزيمة تقديراً قطعياً من اللّه و لم يكن محيص من التسليم امامه".

"وهذا هو نفس عقيدة الجبر لا يفترق عنه قيد شعرة"، مع أنّه سبحانه يقول: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾[٧].

"وقد أشار سبحانه إلى عامل الهزيمة وأنّه أمران":

"الأول: إعجابهم بكثرتهم، فاعتمدوا على الكثرة، مكان الاعتماد على اللّه سبحانه أوّلاً وعلى قواهم الذاتية ثانياً " كما يقول: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾.

"الثاني: الانسحاب عن ساحة الحرب بدل الثبات"، كما يقول سبحانه ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ مع أنّهم "أُمروا بالثبات كما" يقول تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ﴾[٨].

والأمر العجب انّ هذه العقيدة عقيدة القدر السالب للاختيار كانت سائدة ايضا بعد رحيل الرسول الاعظم وباقية في اذهان الصحابة، فمثلا السيوطي يروي "عن عبد اللّه بن عمر أنّه جاء رجل إلى أبي بكر، فقال: أرأيت الزنا بقدر؟ قال: نعم، قال: فإنّ اللّه قدّره عليّ ثمّ يعذّبني؟ قال: نعم يا بن اللخناء أما واللّه لو كان عندي إنسان أمرته أن يجأنفك"[٩].

"لقد كان السائل في حيرة من أمر القدر فسأل الخليفة عن مسالة الزنا اهو مقدَّراً من اللّه أم لا؟ فلما رد الخليفة بنعم، استغرب من ذلك الأمر، لأنّ العقل لا يسوّغ تقديره سبحانه شيئاً سالباً للاختيار عن الإنسان في فعله أو تركه ثمّ تعذيبه عليه"، ولذلك قال: " فانّ اللّه قدّره عليّ ثمّ يعذبني فعند ذاك أقرّه الخليفة على ما استغربه، وقال: نعم يابن اللخناء"[١٠].

"ومن هنا وجد التفسيرُ الخاطئ للدين طريقَه إلى المجتمع الحاضر وانّه وسيلة لدعم الجهاز الحاكم، وقد استغل الشيوعيون والعلمانيُّون هذه الفكرة لإبعاد الناس عن الدين ولكنّهم خلطوا سهواً أو عمداً بين كون الدين الواقعي ـ الذي أُلهم على قلوب الأنبياء – الّذي لا يكون مسانداً للجهاز الظالم – و بين التفسير الباطل للدين، إذ كيف يكون الدين مسانداً للسلطات الزمنية الجائرة مع أنّه يأمر بالعدل و الاحسان وينهى عن الظلم والفحشاء"؟! "يقول إمام المسلمين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب a راوياً عن النبي i : ((لن تقدس أُمّة لا يؤخذ للضعيف فيها حقّه من القوي غير متعتع))[١١].

"انّ الأمويين استغلّوا مسألة الجبر لإرساء قواعد حُكْمِهم الى درجة أنّ معاوية بن ابي سفيان لّما نصب ولده يزيد خليفة للمسلمين وسلّطه على رقاب المسلمين لم تقبل منه عائشة

بنت أبي بكر، فأجابها معاوية: إنّ أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم"(١٢).

"وبهذا أيضاً رد معاوية عبد اللّه بن عمر عندما سأل معاوية في مسالة تنصيبه يزيدَ للحكم؟ بقوله: إنّي أُحذرك أن تشق عصا المسلمين وتسعى في تفريق ملئهم وأن تسفك دماءهم، وانّ أمر يزيد قد كان قضاءً من القضاء وليس للعباد خيرة من أمره"(١٣).

"وقد سرى هذا الاعتذار إلى غير الأمويّين من الذين ساروا في ركب الخلفاء، فهذا هو عمر بن سعد بن أبي وقاص، قاتل الإمام الشهيد الحسين a فلمّا اعترض عليه عبد اللّه بن مطيع العدوي بقوله: اخترت همدَان والريَ على قتل ابن عمك؟! فقال عمر: كانت أُمور قُضِيتْ من السماء و قد أعذرت إلى ابن عمي قبل الوقعة فأبى إلاّ ما أبى"(١٤).

"وقد برّرتْ عائشة خلافَها مع الإمام علي a بالقضاء والقدر"، على ما رواه الخطيب عن أبي قتادة فعندما بين قضية الخوارج في النهروان لعائشة أجابته بقولها: "وما يمنعني ما بيني وبين عليّ أن أقول الحق، سمعت النبي i يقول: ((تفترق أُمّتي على فرقتين تمرق بينهما فرقة محلّقون رؤوسهم، مخفّون شواربهم، أزرهم إلى أنصاف سوقهم، يقرأون القرآن لا يتجاوز تراقيهم يقتلهم أحبهم إليّ، وأحبهم إلى اللّه، قال: يا أُمّ المؤمنين فأنت تعلمين هذا فلم كان الذي منك؟! قالت: يا أبا قتادة وكان أمر اللّه قدراً مقدوراً، وللقدر أسباب))(١٥).

"ومن الأمور التي صارت سبباً لتركيز ظاهرة الجبر بين المسلمين هي الأساطير التي نسجها الأحبار والرهبان ونشروها بين المسلمين حول القضاء والقدر، فهذا هو حماد بن سلمة يروي عن أبي سنان قال: ((سمعنا وهب بن منبه، قال: كنتُ أقول بالقدر حتّى قرأت بضعة وسبعين كتاباً مِنْ كتب الأنبياء في كلّها: من جعل لنفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر، فتركتُ قولي"(١٦).

المبحث الثاني

مفهوم الجبر والاختيار في الآية ٩٣ من سورة النحل عند الفريقين

قال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١٧).

يشير العلامة ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره لهذه الآية "ان ظاهر عبارة الآية المذكورة يوحي بأن الهداية والضلال جبريان ومرتبطان بإرادة الله تعالى بينما العبارة الأخيرة من الآية توضح أن الهداية والضلال مترتبان على أعمال الإنسان نفسه، ولمزيد من التوضيح نقول: إن أعمال الإنسان وتصرفاته لها نتائج وثمار معيّنة لو كان العمل صالحاً فنتيجته مزيد من التوفيق والهداية في السير نحو الله ومزيد من أداء الأعمال الصالحة وإن جنح الإنسان نحو المنكرات، فان الظلمات تتراكم على قلبه، ويزداد نهماً لارتكاب المحرمات"[١٨]، وقد يبلغ به الأمر إلى أن ينكر خالقه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾[١٩].

ممّا تقدم يظهر أن الإنسان حُرّ في انتخاب المسار في بداية الأمر، وهذه حقيقة يقبلها ضمير كل إنسان، ثم على الفرد بعد ذلك أن ينتظر النتائج الحتمية لأعماله، بعبارة اخرى ان الهداية والضلالة - في المفهوم القرآني - لا يعنيان الإجبار على اختيار الطريق الصحيح أو الخاطئ، بل إن الهداية - المشار اليها في الآيات المتعدّدة - تعني توفّر سبل السعادة، والإضلال: اي بمعنى زوال الأرضية المساعدة للهداية، من غير أن يكون هناك إجبار في المسألة"[٢٠].

" كما ان توفّر السبل الذي نسميه التوفيق، وزوال هذه السبل الذي نسميه سلب التوفيق، هما عادة نتيجة أعمال الفرد نفسه، فلو منح الله فرداً توفيق الهداية، أو سلب من أحد هذا التوفيق، فإنما ذلك بسبب الأعمال المباشرة لهذا الانسان أو ذاك".

"ويمكن التمثيل لهذه الحقيقة بمثال اخر: اذ يمرّ الإنسان قرب هاوية حساسة، فإنه يتعرّض لخطر الإنزلاق والسقوط فيها كلّما اقترب منها أكثر، كما أن إحتمالية سقوطه في الهاوية يقلّ كلما سار بعيدا عنها، والحالة الأُولى هداية والثانية ضلال"[٢١].

ويشير العلامة الطباطبائي في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾..إلخ، "لما انجر الكلام إلى ذكر اختلافهم عقب ذلك ببيان أن اختلافهم ليس بناقض للغرض الإلهي في خلقهم ولا أنهم معجزون له سبحانه ولو شاء لجعلهم أمة واحدة لا اختلاف بينهم ولكن الله سبحانه جعلهم مختلفين بالهداية والإضلال فهدى قوما

وأضل آخرين وذلك أنه تعالى وضع سعادة الإنسان وشقاءه على أساس الاختيار وعرفهم الطاعة المفضية إلى غاية السعادة والمعصية المؤدية إلى غاية الشقاء فمن سلك مسلك المعصية واجتاز للضلال جازاه الله ذلك، ومن ركب سبيل الطاعة واختار الهدى جازاه الله ذلك وسيسألهم جميعا عما عملوا واختاروا وبما تقدم يظهر أن المراد بجعلهم أمة واحدة رفع الاختلاف من بينهم وحملهم على الهدى والسعادة، وبالإضلال والهداية ما هو على سبيل المجازاة لا الضلال والهدى الابتدائيان فإن الجميع على هدى فطري فالذي يشاء الله ضلاله فيضله هو من اختار المعصية على الطاعة من غير رجوع ولا ندم، والذي شاء الله هداه فهداه هو من بقي على هداه الفطري وجرى على الطاعة أو تاب ورجع عن المعصية صراطا مستقيما وسنة إلهية ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا"[٢٢].

وجاء في تفسير القرطبي في قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي "على ملة واحدة". ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ "بخذلانه إياهم؛ عدلا منه فيهم". ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بتوفيقه إياهم؛ "فضلا منه عليهم، ولا يسأل عما يفعل بل تسألون أنتم. والآية ترد على أهل القدر كما تقدم. واللام في (وليبينن، ولتسئلن) مع النون المشددة يدلان على قسم مضمر، أي والله ليبينن لكم ولتسئلن"[٢٣].

ويشير الشعراوي في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ..﴾[٢٤].

"هذه الآية يقف عندها المتمحِّكون، والذين قَصُرَتْ أنظارهم في فهْم كتاب الله"، فيقولون: " طالما أن الله هو الذي يضِلّ الناس، فلماذا يُعذِّبهم؟ ونتعجَّب من هذا الفهم لكتاب الله"

ونقول لهؤلاء" لماذا أخذتُمْ جانب الضلال وتركتُم جانب الهدى؟ لماذا لم تقولوا: طالما أن الله بيده الهداية، وهو الذي يهدي، فلماذا يُدخِلنا الجنة؟ إذن: هذه كلمة يقولها المسرفون"؛ لأن معنى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾[٢٥]. "أي: يحكم على هذا من خلال عمله بالضلال، ويحكم على هذا من خلال عمله بالهداية، مثل ما يحدث عندنا في لجان الامتحان، فلا نقول: اللجنة أنجحت فلاناً وأرسبت فلاناً، فليست هذه مهمتها، بل مهمتها أن تنظر أوراق الإجابة، ومن خلالها تحكم اللجنة بنجاح هذا وإخفاق ذاك وكذلك الحق" -

تبارك وتعالى - "لا يجعل العبد ضالاً، بل يحكم على عمله أنه ضلال وأنه ضَالّ؛ فالمعنى إذن: يحكم بضلال مَنْ يشاء، ويحكم بهُدَى مَنْ يشاء، وليس لأحد أن ينقلَ الأمر إلى عكس هذا الفهم"(٢٦).

المبحث الثالث

مفهوم الجبر والاختيار في الآية ٤٩ من سورة يونس عند الفريقين

قال تعالى ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٢٧).

يشير العلامة الشيرازي في تفسير الامثل ان الله سبحانه وتعالى لقن النبي i أن يبدأهم " في الجواب ببيان أنه لا يملك لنفسه ضرا حتى يدفعه عنها ولا نفعا حتى يجلبه إليها ويستعجل ذلك إلا ما شاء الله أن يملكه من ضر ونفع فالأمر إلى الله سبحانه جميعا، واقتراحهم عليه بأن يعجل لهم القضاء والعذاب من الجهل ثم يجيب عن سؤالهم عن أصل تعيين الوقت جوابا إجماليا بالإعراض عن تعيين الوقت والإقبال على ذكر ضرورة الوقوع، أما الأول فإنه من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وأمره الذي لا يتسلط عليه إلا هو ٨وأما الثاني أعني ذكر ضرورة الوقوع فقد بين ذلك بالإشارة إلى حقيقة هي من النواميس العامة الجارية في الكون تنحل بها العقدة وتندفع بها الشبهة، وهي أن لكل أمة أجلا لا يتخطاهم ولا يتخطونه فهو آتيهم لا محالة، وإذا أتاهم لم يخبط في وقوعه موقعه ولا ساعة، وهو قوله تعالى: لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون أي وأنتم أمة من الأمم فلا محالة لكم أيضا أجل كمثلهم إذا جاءكم لا تستأخرون ساعة ولا تستقدمون"(٢٨).

"فإذا فقهوا هذا الكلام وتدبروه بأن لهم أن لكل أمة حياة اجتماعية وراء الحياة الفردية التي لكل واحد من أفرادها ولحياتها من البقاء والعمر ما قضى به الله سبحانه لها ولها، من السعادة والشقاوة والتكليف والرشد والغي والثواب والعقاب نصيبها، وهي مما اعتنى بها التدبير الإلهي نظير الفرد من الإنسان حذو النعل بالنعل"(٢٩).

ويدلهم على ذلك ما يشير به التاريخ ويفصح عنه اثارهم الخربة ومساكنهم الفانية، وقد روى عليهم القرآن قصص بعضهم كقوم نوح، وقوم عاد و هود، وثمود قوم صالح،

وكلدة قوم إبراهيم وغيرهم.

"فهؤلاء لأمم قد انقرضت وسكنت أجراسهم وخمدت أنفاسهم ولم يخمدوا إلا بعذاب وهلاك، ولم يعذبوا إلا بعد ما اتتهم رسلهم بالبينات ولم يجيء قوما منهم رسوله إلا واختلفوا في الحق الذي جاءهم فبعضهم من آمن به وبعضهم من كذب به وهم الأكثرون"(٣٠).

والى ذلك يشير العلامة الطباطبائي بقوله " إنّ هذه الجملة في الحقيقة إشارة إلى توحيد الأفعال حيث يرتبط كل شيء في هذا العالم بالله سبحانه، وكل الحركات والافعال معلولة لإرادته ومشيئته، فهو الذي ينصر المؤمنين بحكمته، وهو الذي يجازي المنحرفين بعدالته، إذ من البديهي أنّ ذلك لا ينافي أنّ الله قد أعطانا قوى وطاقات نملك بواسطتها جلب النفع ودفع الضرر، ونستطيع أن نختار ما يتعلق بمصيرنا، وبتعبير آخر فإنّ هذه الآية تنفي الملكية بالذات لا بالغير، وجملة (إلاّ ما شاء الله) قرينة واضحة على هذا الموضوع"(٣١).

ومن هنا يُعلم " أنّ استدلال بعض المتعصبين بهذه الآية على نفي جواز التوسل بالنّبي i ضعيف جداً، لأنّه إذا كان المقصود من التوسل أن نعتبر النّبي i ذا قدرة ذاتية ومالكاً للنفع والضر، فإنّ هذا شرك قطعاً، ولا يمكن أن يؤمن بهذا أي مسلم، أمّا إذا كانت هذه الملكية من الله سبحانه وهي داخلة تحت عنوان: إلاّ ما شاء الله، فما المانع من ذلك، وهذا هو عين الإيمان والتوحيد"(٣٢).

"لكن وبسبب الغفلة عن هذه المسالة أتلف وقته ووقت قُرّاء تفسيره بالمباحث الطويلة، وهو مع الأسف قد ارتكب العدد الكثير من هذه الأخطاء، والتي يمكن اعتبار التعصب اساسها جميعاً".

"ثمّ يشير القرآن إلى جواب آخر" ويقول: " لكل أُمّة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون" وبتعبير آخر "فإنّ أي أُمّة إذا انحرفت عن مسير الحق، فسوف لا تكون مصونة من العذاب الإلهي الذي هو نتيجة أعمالها، فعندما ينحرف الناس عن قوانين الخلقة والطبيعة فسيبددون طاقاتهم وملكاتهم في فراغ ويسقطوا في النهاية في هاوية الانحطاط ويحتفظ تاريخ العالم في ذاكرته بنماذج كثيرة من ذلك"(٣٣).

وإلى ذلك يشير الطبري في تأويل قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ويقول تعالى ذكره: قل يا محمد لمستعجليك وعيد الله، القائلين لك: متى يأتينا الوعد الذي تعدنا إن كنتم صادقين: لا أملك لنفسي أيها القوم ؛ أي لا أقدر لها على ضر ولا نفع في دنيا ولا دين إلا ما شاء الله أن أملكه فأجلبه إليها بإذنه. يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: قل لهم: فإذا كنت لا أقدر على ذلك إلا بإذنه فأنا عن القدرة على الوصول إلى علم الغيب ومعرفة قيام الساعة أعجز وأعجز، إلا بمشيئته وإذنه لي في ذلك. القول في تأويل قوله تعالى: قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله ".

كما يقول تعالى "ذكره: قل يا محمد لمستعجليك وعيد الله، القائلين لك: متى يأتينا الوعد الذي تعدنا إن كنتم صادقين: {لا أملك لنفسي} أيها القوم ؛ أي لا أقدر لها على ضر ولا نفع في دنيا ولا دين إلا ما شاء الله أن أملكه فأجلبه إليها بإذنه. يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: قل لهم: فإذا كنت لا أقدر على ذلك إلا بإذنه فأنا عن القدرة على الوصول إلى علم الغيب ومعرفة قيام الساعة أعجز وأعجز، إلا بمشيئته وإذنه لي في ذلك. ' يقول لكل قوم ميقات لانقضاء مدتهم وأجلهم، فإذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم، لا يستأخرون عنه ساعة فيمهلون ويؤخرون، ولا يستقدمون قبل ذلك ؛ لأن الله قضى أن لا يتقدم ذلك قبل الحين الذي قدره وقضاه. يقول: لكل قوم ميقات لانقضاء مدتهم وأجلهم، فإذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم، لا يستأخرون عنه ساعة فيمهلون ويؤخرون، ولا يستقدمون قبل ذلك ؛ لأن الله قضى أن لا يتقدم ذلك قبل الحين الذي قدره وقضاه "(٣٤).

أما القرطبي فيشير في" قوله تعالى: قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعا لما استعجلوا النبي صلى الله عليه وسلم بالعذاب قال الله له: قل لهم يا محمد لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا؛ أي ليس ذلك لي ولا لغيري. إلا ما شاء الله أن أملكه وأقدر عليه، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم فلا تستعجلوا. لكل أمة أجل أي لهلاكهم وعذابهم وقت معلوم في علمه سبحانه"(٣٥).

المبحث الرابع

مقارنة آراء الفرقين في مسألة الجبر الاختيار من خلال الآيتين المتقدمتين

أستدل علماء أهل السنة لأثبات رأيهم في الافعال الانسانية من عدة وجوه:

١- "إن فعل العبد في ذاته وكل ممكن مقدور لله عز وجل لان قدرته تعالى شاملة عامة لجميع الممكنات ولا شيء مما هو مقدور لله بواقع بقدرة العبد لامتناع إجتماع قدرتين مؤثرتين على مقدور واحد".

٢- لو كان العبد موجداً لأفعالهِ بالاختيار والاستقلال لوجب أن يعلم تفاصيلها ولما كان من المستحيل على الانسان الاحاطة بجميع وجوه الفعل إذ تصدر منه أفعال في غفلته وذهوله وهي على الانسجام والانتظام وصفة الاتقان والاحكام والعبد غير عالم بما يصدر منه وجب أن يكون الصادر منه دالاً على مخترعه أي الله تعالى ".

٣- "إن العبد لو كان موجداً لفعله بقدرته واختياره استقلالاً فلا بد أن يتمكن من فعله وتركه، وإلا لم يكن قادراً عليه مستقلاً فيه، فلا بد أن يتوقف ترجيح فعله على تركه على مرجح، إذ لو لم يتوقف عليه كان صدور الفعل عنه مع جواز طرفيه وتساويهما، اتفاقاً لا اختياراً ويلزم ايضاً أن لا يحتاج وقوع أحد الجائزين إلى سبب وذلك المرجح لا يكون منه أي من العبد باختياره وإلا لزم التسلسل والتسلسل باطل"[٣٦].

"من خلال ما تقدم يظهر ان أهل السنة والجماعة تبرز آراؤهم في قضية القدرة الإلهية وصلتها بالأفعال الانسانية متوسطة بين افكار المعتزلة القائلين: بأن الله تعالى عادل، وعدله يقتضي ان يعطي للإنسان قدرة وارادة مادام مكلفاً بحيث يحدث الانسان افعاله بنفسه وبالقدرة الحادثة التي منحها الله اياه، فهو الخالق الموجد لأفعاله المتصرف باستطاعته الذاتية، وهو المسؤول عما يفعل بمشيئته وارادته وقدرته وحريته وبين الجبرية المحضة الذين تذهب آراؤهم: بأن الله هو خالق افعال العباد، وان الانسان لاحول له ولا قوة فهو كريشة في مهب الريح، فجاءت اراء أهل السنة والجماعة بنظرية الكسب التي مفادها: "ان الفعل الانساني خلق وايجاد من جهة الله، وكسب وتحصيل من جهة العبد، فعند ارادة العبد للفعل

يخلق الله تعالى في العبد القدرة على اكتسابه فيكون الفعل خلقاً لله وكسباً للعبد. فالقدرة على اكتساب الفعل عند الأشعري تقترن بالفعل ولا تسبقه"[٣٧].

"أما فيما يخص الارادة الالهية وعلاقتها بإرادة الإنسان فقد بنى أهل السنة والجماعة ايضا اعتقادهم في هذا الأمر على اساس ان القدرة الالهية المطلقة على عكس المعتزلة الذين بنوها على اساس العدالة الالهية". لذلك يرى أهل السنة والجماعة : "اذا كان الخالق على الحقيقة هو الباري تعالى لا يشاركه في الخلق غيره فأخص وصفه تعالى هو القدرة"[٣٨].

"أما الشيعة الإمامية بعدما رفضوا نظريّة أهل السنة والجماعة في أفعال العباد ونقدها صريحاً، ورفضوا نظريّة المعتزلة فيها كذلك، اختاروا نظريّة اخرى وهي: الأمر بين الأمرين، وهي نظريّة وسطى لا يوجد إفراط فيها ولا تفريط، وقد أرشدت إلى هذه النظريّة الروايات الواردة في هذا الأمر من الأئمة الأطهار d الدالّة على مسالة بطلان الجبر والتفويض من ناحية، وعلى إثبات نظرية الأمر بين الأمرين من ناحية اُخرى. ولولا تلك الروايات الواردة عن أهل البيت d لوقعوا بطبيعة الحال في جانبي الافراط أو التفريط، كما وقع فيها أصحاب النظريتين الاُوليين"[٣٩].

"وعلى ضوء هذه الروايات كان علينا أن نتّخذ هذه النظريّة لكي نثبت بها العدالة والسلطنة لله (سبحانه وتعالى) معاً، بيان ذلك: أنّ نظريّة أهل السنة والجماعة وإن تضمنت إثبات السلطنة المطلقة للباري (عزّ وجلّ) إلاّ أنّ فيها القضاء الحاسم على عدالته (سبحانه وتعالى). ونظريّة المعتزلة على عكسها، يعنى أنّها وإن تضمّنت إثبات العدالة للباري تعالى إلاّ أ نّها تنفي بشكل قاطع سلطنته المطلقة وأسرفت في تحديدها"[٤٠].

"وعلى هذا، فبطبيعة الحال يفترض الأخذ بمدلول الروايات لا من جهة التعبّد بها حيث إنّ المسألة ليست من الأمور التعبّدية، بل من جهة أنّ الطريق الوسط الذي يمكن به حل مشكلة الجبر والتفويض منحصر فيه."

أنّ أفعال العباد تتوقف على مقدّمتين:

الاُولى: هي حياتهم وقدرتهم وعلمهم وما يشبه ذلك.

الثانية: مشيئتهم وإعمالهم هي القدرة نحو إيجادها في الخارج[٤١].

"والمقدّمة الأُولى تفيض من الله تعالى وترتبط بذاته الأزلية ارتباطاً ذاتياً وخاضعة له، يعنى أ أنّها عين الربط والخضوع، لا أ نّه شيء له الربط والخضوع. وعلى هذا الضوء لو انقطعت الافاضة من الله (سبحانه وتعالى) في آن انقطعت الحياة فيه حتماً.

"والمقدّمة الثانية: تفيض من العباد عند فرض وجود المقدمة الأُولى، فهي مرتبطة بها في واقع مغزاها ومتفرعة عليها ذاتاً، وعليه فلا يصدر فعل من العبد إلاّ عند إفاضة كلتا المقدمتين، وأمّا إذا انتفت إحداهما فلا يعقل تحققه. وعلى أساس ذلك صحّ إسناد الفعل إلى الله تعالى، كما صحّ إسناده إلى العبد"(٤٢).

الخاتمة:ـ

يستنتج مما سبق عدد من النقاط ابرزها:

١- ان بني امية كان لهم دور بارز في ترسيخ ظاهرة الجبر على الساحة الإسلامية لما لتلك الظاهرة من أثر بارز في تبرير حكمهم وظلمهم لعامة المسلمين بما يمهد لتثبيت اركان خلافتهم المزعومة.

٢- تذهب الإمامية إن التشريع ليس مبنياً على فكرة الإجبار في الأفعال، فالتكاليف مجعولة على وفق مصالح العباد في امور معاشهم ومعادهم أولاً، وهي متوجهة إلى العباد من جهة أنهم مختارون في الفعل والترك ثانياً، والمكلفون إنما يثابون أو يعاقبون بما جنت أيديهم من خير أو شر اختياراً.

٣- ان الروايات المتواترة عن ائمة أهل البيت d معنىً وإجمالاً الواضحة الدلالة على عدم صحة نظريتي الجبر والتفويض من جهة، وعلى إثبات نظريّة الأمر بين الأمرين من جهة أُخرى.

٤-لقد اعتقد الاشاعرة إلى مسالة ان افعال العباد الاختيارية تقع بقدرة الله (سبحانه وتعالى) وحدها، وليس لقدرتهم فيها تأثير.

٥-"الادلة التي اشار اليها الاشاعرة لاثبات واقرار نظريتهم في الافعال الانسانية كثيرة ومتعددة منها نقلية واخرى عقلية".

هوامش البحث

(١) ابن منظور: محمد بن مكرم (٧١١هـ)، لسان العرب: تح: عامر أحمد حيدر، ط٥، دار الكتب العلمية، بيروت ـ ٢٠٠٥م، ج٦، ص٢٨١.

(٢) محمد تقي المدرسي، بحوث في القرآن الحكيم، دار محبي الحسين a ، طهران ـ إيران، ط١، ٢٠٠٠م، ١٤٢٠هـ. ص٢٤.

(٣) سورة الأنعام: ١٤٨ .

(٤) سورة الأعراف: ٢٨.

(٥) محمد علي الحسيني، الشيعة في اصولهم وعقائدهم، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٦ ص ١٥٣

(٦) الواقدي، محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، (مطبعة المؤسسة الأعلى - بيروت)، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م:٣/٩٠٤.

(٧) سورة التوبة: ٢٥

(٨) سورة الأنفال: ١٥

(٩) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محبي الدين عبد الحميد، مكتبة السعادة، القاهرة، ١٩٧٩م: ٩٥

(١٠) الواقدي، المغازي:٣/٩٠٦.

(١١) ابن ابي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله (ت، ٦٥٥ هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، القاهرة، ١٩٦٤، ١٤: ٢١١

(١٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١:٢٠٠٦/ ١٦٧

(١٣) المصدر نفسه:١/ ١٧١ .

(١٤) ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد بن القادر عطا، (دار الكتب العلمية ببيروت)، ١٣١٠هـ/١٩٩٠م:٥/١٤٨

(١٥) الخطيب البغدادي، الحافظ ابو بكر احمد بن علي الخطيب (١٩٣١). تاريخ بغداد ومدينة السلام، (دار الكتب العربية بيروت - لبنان)، ٢٠٠٠ م :١/ ١٦٠

(١٦) الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، قدمه: صدقي جميل العطار، (دار الفكر للطباعة بيروت)، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م: ٤/ ٣٥٣

(١٧) سورة النحل: ٩٣.

(١٨) الشيرازي، ناصر مكارم: الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، مؤسسة البعثة، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ج١٠، ص١٧٣.

(١٩) سورة الروم: ١٠.

(٢٠) المصدر نفسه،، ج١٠، ص١٧٤.

(٢١) الشيرازي، تفسير الامثل، ج١٠، ص١٧٤.
(٢٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ج١١، ص٢١٧.
(٢٣) القرطبي: ابو عمر يوسف بن عبد البر التمري، (ت: ٤٦٣هـ). الجامع لاحكام القرآن، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان، مؤسسة التاريخ العربي، ط٢، ١٤٠٥هـ، ج٩، ص١٥٥.
(٢٤) سورة النحل: ٩٣.
(٢٥) سورة النحل: ٩٣.
(٢٦)الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، اخبار اليوم، قطاع الثقافة، (د. ت. ط.)، ج١٢، ص ٨٧.
(٢٧) سورة يونس: ٤٩.
(٢٨) المصدر نفسه، ج٦، ص٢٠٣.
(٢٩) المصدر نفسه، ج٦، ص٢٠٤.
(٣٠) المصدر نفسه، ج٦، ص٢٠٤.
(٣١) الطباطبائي، الميزان، ج٧، ص ١١٤.
(٣٢) المصدر نفسه، ج٧، ص ١١٤.
(٣٣) المصدر نفسه، ج٧، ص ١١٥.
(٣٤) الطبري: ابو جعفر محمد بن جرير، (ت: ٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢، ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م، ط٣، ١٣٨٨هـ - ١٩٨م، ج٨، ص١٧٠.
(٣٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٦، ص ٢٩٩
(٣٦) الايجي، عضد الدين. المواقف، بشرح السيد الشريف الجرجاني، ط١، مصر، مطبعة السعادة، ج٨، د.ت: ١٤٨-١٤٩
(٣٧) ينظر: الباقلاني، القاضي أبو بكر، الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ط٢، تحقيق: الشيخ محمد زاهر الكوثري، مصر، مطبعة الخانجي، ١٩٨٦: ٨٩
(٣٨) الشهرستاني، عبدالكريم. الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، القاهرة. ج١: ١٣٠
(٣٩) كولدتسيمر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف وآخرون، ط٢، القاهرة: مطابع دار الكتاب العربي، ١٩٥٩م، ص١٠٣.
(٤٠) المصدر نفسه ص١٠٣.
(٤١) عبد الرزاق محمد، المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، بيروت: دار العربية للموسوعات، ٢٠٠٩، ص٦٥.
(٤٢) صبحي، أحمد محمود نظرية الإمامة لدى الشيعة الأثنى عشرية، مصر: دار المعارف، ١٩٦٩ م ص١٩٠.

قائمة المصادر والمراجع

- خير ما نبتدأ به القرآن الكريم.

- الباقلاني، القاضي أبو بكر، الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ط٢، تحقيق: الشيخ محمد زاهر الكوثري، مصر، مطبعة الخانجي، ١٩٨٦.

- ابن ابي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله (ت، ٦٥٥هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، القاهرة، ١٩٦٤.

- الحسيني، محمد علي، الشيعة في اصولهم وعقائدهم، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٦.

- الخطيب البغدادي، الحافظ ابو بكر احمد بن علي الخطيب (١٩٣١). تاريخ بغداد ومدينة السلام، (دار الكتب العربية بيروت - لبنان)، ٢٠٠٠م.

- الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، قدمه: صدقي جميل العطار، (دار الفكر للطباعة بيروت)، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

- ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد بن القادر عطا، (دار الكتب العلمية ببيروت)، ١٣١٠هـ/١٩٩٠م.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محبي الدين عبد الحميد، مكتبة السعادة، القاهرة، ١٩٧٩م.

- الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، اخبار اليوم، قطاع الثقافة، (د. ت. ط.).

- الشيرازي، ناصر مكارم: الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، مؤسسة البعثة، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

- صبحي، أحمد محمود نظرية الإمامة لدى الشيعة الأثنى عشرية، مصر: دار المعارف، ١٩٦٩م.

- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

- الطبري: ابو جعفر محمد بن جرير، (ت: ٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢، ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م، ط٣، ١٣٨٨هـ - ١٩٨م.

- عبد الرزاق محمد، المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، بيروت: دار العربية للموسوعات، ٢٠٠٩.

- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٦.

- القرطبي: ابو عمر يوسف بن عبد البر التمري، (ت: ٤٦٣هـ). الجامع لأحكام القرآن، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان، مؤسسة التاريخ العربي، ط٢، ١٤٠٥هـ.

- كولدتسيمر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف وآخرون، ط٢، القاهرة: مطابع دار الكتاب العربي، ١٩٥٩م.

- المدرسي، محمد تقي، بحوث في القرآن الحكيم، دار محبي الحسين، طهران ـ إيران، ط١، ٢٠٠٠م، ١٤٢٠هـ

- ابن منظور: محمد بن مكرم (٧١١هـ)، لسان العرب: تح: عامر أحمد حيدر، ط٥، دار الكتب العلمية، بيروت ـ ٢٠٠٥م.

- الواقدي، محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، (مطبعة المؤسسة الأعلى - بيروت)، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.